قرأت في العدد الماضي

القصائد

بقلم : محيي الدين صبحي

منذ شهور وانا في شوق الى فرحة عرمة بان اطر على جناح حرف الى عالم من نغم وخيال وطموح يراود العلياء ، او يغوص فيفضح للقلب اسراره ، ويعري التوق في حسن مجلو ونزوة متلهفة راعشة .

ان الشعر في العراق ! أكلما اسدل الستار وتقطعت الاسباب بيننا وبين الرافدين قدر علينا الحرمان من ابنية السياب بجبروتها ومن اغنيات الملائكة بشحوبها ؟ وفي الحق ان الشعر العربي يتيم بعد صمت الجبارين البعيدين كأبوريشه والقباني والحاوي والعراقيين .. اما سلمى الخضراء فما تزال تعطي بكرم ، واننا لنأمل ان نرى ديوانها في العاجل القريب . اما الخطير في الامر فهو انه ما طلع في دنيا الملهمين واحد يبشر بخير الا وصمت بعد اول ديوان ... ولنا في شعراء مصر مثولة حسنة ... كان موهبتهم لم يراعة وليست ضوء نجم . وعلى الرغم من ان موهبتهم قد استهلكها ـ فيما يبدو ـ ديوان واحد ، فان لهم قصائد تحمل بعض التعبير عن روح الامة والعصر ، كما ان فيها بعض التمكن من فن الشعر وصناعة الشعر . اما ما نقرأه فشعر «حديث»! خال من اي تعبير « حديث » وان وجد شيء يحمل بعضا من رفيف فغارق في ركام الكلام العادي والفكرة المبتذلة حتى نكاد نستذكر المثل القديم « رب جوهرة في خرابة » . ويدخل في هذا الباب من شعر العدد الماضي قصيدة خليل خوري « الى سواد عينين » . وهي قسمان :

١ ـ « الصحو المخمور » : قصيدة كان يمكن ان تكون جيدة لان الحركة النفسية واضحة في بعض المقاطع .. واننا لنقع في دوار اذ نقرأ منها :

.. وصفاء الابيض النعسان في اثوابه

أبدا القاه يرميني ، على شطآن لا ادري مداها

ليل عينيك وارحل .

الا انني لم استطع ابدا ـ رغم محاولاتي المخلصة ـ ان افهم مطلع القصيدة :

انت ، ما ترنين ، شيء ليس لي عهد به

فانا لم افهم معنى « انت ما ترنين شيء » اذ ان الجملة الاعتراضية (ما ترنين) ليس لها اي معنى سوى الوقع الموسيقي . ولا يستقيم المعنى الا اذا كانت «ما ترنين» اسم علم مثل «جانين» .. ثم يتم القصيدة على هذا الشكل :

في وجودي يتململ

وضبابيا ، ومن لون الصحاري وجبيبات الندى في موقفله .

ترى ما هو عامل النصب في « وضبابيا » ؟ على ان القصيدة في جملتها متماسكة وفيها دفقة شعورية وشعرية كان يمكن ان تكون اكثر تأثيرا لو استمر الشاعر في هذا النسق من البوح ، لكنه بتر ، وابتدأ مقطوعة جديدة هي « الوهن العاني » يشتكي فيها من انه يعجز عن الحب امام من يهوى كما قال الشاعر القديم :

فما هو الا ان اراها فجأة فأبهت حتى ما اكاد اجيب !

ولكنه لا يعطي المعنى بهذا الشكل المختصر وانما يعطيه بحسب الشكل الحديث الذي يستخدم طريقة الاحياء والتجسيد :

تبهت الحاء ، وتشقى الباء

كي توضح ما ليس يعرف !

وفيما بعد :

وتمد الماء كفا

وتمد الباء اضلاع السلال ؟!

وهكذا توضع الخمر القديمة في باطية جديده وتقدم للقارئين على انها شعر حديث !

والمشكلة ـ فيما تبدو لي ـ مشكلة الانسان العربي : يكون ابداعه جديدا على مدى تجدده وتخليه عن القيم العتيقة واعتناقه لمثل جديدة واستشرافه لحياة جديدة وتعبير جديد . وقد عرض لمثل هذه الحال الشاعر المجدد صلاح عبد الصبور فقال :

قد يعقد الوجد اللسان

فلا تسلني عن خبر

واستمر بعد ذلك في تقديم التجربة ...

ان المشكلة في كل قصائد العدد (ما عدا سمفونية ، وكلمات انسان معاصر ، وستشرق الشمس ثانية) هو وقوف الشاعر عند حدود التجربة الضحلة دون ان يقدر على الاطلال الى افق انساني . واننا لنسأل انفسنا بعد قراءة هذه القصيدة : عم اراد الشاعر ان يعبر ؟ اعن عجز الانسان امام الحب او امام الجمال او عن ضعف ادوات التعبير ؟.. ان القصيدة سرد معدوم الحركة .

ويلحق بهذه القصيدة ـ من حيث كونها محصورة في رؤيا مسطحة ـ قصيدة «الطريق الشائك» للشاعر كيلاني سند وفيها يظهر خداع الصور على اشده ، فالشاعر يحاول ان يصور صعوبة الدرب الذي نشقه في سبيل حياة افضل فيعتمد التهويل في تعداد المفاوز المهلكة : اجتياز البحار وصعود الجبال وارتياد القفار وانسفاح الدماء في سبيل اغنية ! ومع ذلك فالقصيدة تعجز عن اثارة عصب واحد في حساسيتنا لانها سرد لعدد من الصعاب وليست تحليلا للجهد الذي يقتضيه اي منها . ان القصيدة تخلو تماما من روح التحدي والتمرد ومن كل العوامل التي تصور الصراع . انها « قائمة مشاكل » اكثر منها وقفة شعرية على امجاد جيل يصارع الاقدار ويهزمها . وهي مع كل ذلك تحتوي قدرا من (نظم المنثور) .. قدرا يكفي اية قصيدة لان تتحطم . اسمعوا :

كم جبهة عالية ، ملهمة مفكره
ما ابدعته في سجل الخالدين مفخـرة !

وفوق هذا كله ... نلمح قاموس نزار قباني.. ولكن خاليا من اناقـة الصانع الاول. ومن هذا النسق في « نفخ » المعنى القليل و « تذويبه » في اكبر مقدار من الصور قصيدة « التتر الحمر في كركوك »... وهي من شعر « التعبئة الوطنية » التي شاهدناها ايام البطلة « جميلة » حين جرب كل ناظم « مبضع تفاعيله » في موضوع جميلة ... وما مـر عامان حتى نسينا كل ما كتب عنها ـ لخلوه من الاصالة والصدق ـ وبقيت البطولة تنادي شاعرا يمجدها ! ان ما يذبح كل هذا الشـعر عدم تروي اصحابه حتى تنجلي لهم رؤيا انسانية تربط شعرهم بقضية ما ... أقول هذا لانني اجد في قصيدة الشاعر « رفيق الخوري » مثلا طيبا على اللقطة الحلوة اضاعتها قلة الروية . يقول الشاعر :

الحب ... والسلام ... والرغيف
ملطخ بالدم ... بالخريف
ممزق في الدرب مصلوب على النخيل
وقمر الجريمـة الهزيل
يغمر بالاشعة الحاقدة السوداء
جمجمة لطفلة سمراء
تركلها الاقدام في انتشاء
ولم تزل خصلاتها ترف للمساء
ترسم درب عودة لبيتها المضاء
لامها .. للوالد الشغوف
ترسم تاريخا بلا حروف

هذا المشهد يأتي بعد عديد من الابيات التي تتحدث عن الدماء والحقد والاشلاء والرصاص ... الخ. . ويعرض المشهد ثم تنتهي القصيـدة باعلامنا ان التتار الحمر فقؤوا الف عين بريئة وشربوا الخمر في جماجم الاطفال .

بماذا يفترق الشاعر عن المراسل الصحافي ؟ لعل الاخير يضطـر الى الايجاز أكثر ! وبماذا يفترق فن الشعر عن فن الريبورتاج ؟

ان الاطفال المعذبين والاطفال القتلى رمز استغل منذ حديث المسيـح عنهم الى اليوم ... وقد كتب فيهم دوستويفسكي (وهو روائي وليس شاعرا) اعمق مناقشاته عن خلاص العالم فقال بما معناه (اذا كان خلاص العالم مرهونا بشقاء طفل يعذب في الظلام ، فهل نرضى بهذا الخلاص ؟) وبذلك رفع دوستويفسكي هذا الرمز وساواه بالقدر وربطه بقضيـة مصير الانسان وخلاصه عن طريق ثورة حمراء ! ترى لم هذه السطحية؟ وما سبب العقم ؟ هل السبب قلة الموهبة ام قلة الثقافة ام قلة التأني؟

هل اتابع الحساب ؟ الحب والسلام والرغيف .. ملطخ بالدم ... بالخريف . انا افهم ان يلطخ الرغيف بالدم ولكن ما ذنب الخريف ؟ هل يقال ان هذه استعارة او رمز ؟ في البلاغة القديمة كانوا يعجبون بما يسمى (الترشيح للاستعارة) اي خلق الجو المهد لانتقال كلمة من معنى الى معنى اخر كأن تكون حسية فتجرد والعكس اما هنا فالمفاجـأة تامة حتى لا نستطيع ان نقول الا ان الخريف جاءت قافيـة للرغيـف كما ان صفة « هزيل » في « القمر الهزيل » جاءت على قافية النخيـل وكذلك بقية الصفات والقوافي ... على ان هذا كله مقبول ـ ففيـه على الاقل محاولة اولية لايجاد فن او ما يشبه الفن .. وهناك اثر جهد ولو في وضع الصفات والقوافي ، اما قصيدة « طارق الليل » ففيهـا

حسب تعبير محيي الدين محمد ـ سوء « تمثل » لنشيد الانشاد حين يقول : افتحي يا اختي يا حمامتي . رأسي امتلا طلا .. الخ... وكذلك يبدأ كامل أيوب :

نقرت نقرتين ...
صديقتي أتيت فافتحي

حتى يقول :

ومتعبا ـ صديقتي ـ اتيت من بعيد
تقودني البلاد للبلاد للبلاد

وهكذا بامكاننا ان نتخيل كلمة « للبلاد .. » تتكرر الى ما لا نهاية بدون ان تقتضيها اية ضرورة .. كما ان تقديم الحال « متعبا » على الفعل فيه لكنة اجنبية وخروج على قواعد اللغة ما دام ليس هنـاك اي لزوم للتقديم والتأخير . واذا اردنا مثالا على الركاكة وعدم استقامة الجملة العربية في ذهن الناظم حتى يكتب كلاما لا هو بالشعر ولا هـو بالنثر ، قبسنا من المقطوعة هذه الجمل المتتاليات :

أجل انا رجعت ...
الثوب ما خلعت ، وما قعدت ..

الى اخر هذا الكلام الذي لا يستقيم على ذوق ولا ينسجم مع اذن . واذا اردنا ان نعرف كيف ينحط الشعر الى مستوى الكلام العـادي المبتذل الخالي من اي معنى قرأنا في نفس « القصيدة » قوله :

ماذا عن الاصحاب ... كلهم بخير
محمود .. في سفر ؟

ماذا يختلف هذا الكلام عن قوله : ازاي الصحاب .ان شالله مبسوطين امال ... محمود مسافر ؟

اليست سلة المهملات بحاجة الى « شعر» من هذا النوع ؟ مهـلا فما يزال لدينا من هذا النوع قصيدة (فطام) حيث يدعونا الشاعـر ان نسأل (أهل الحي) و (شيخ الحارة) عن حياته العاطفية المليئـة بالمغامرات :

لا تحسبوا ان فؤادي فارغ من الهوى
فلي ككل الناس قصة قديمـــه
وذكريات حلوة ومره
وكل ما في شعركم عرفته ، وذقته
ومت فيه الف مرة ومره
او فأسألوا عني اهالي حينا

واذا لم نجد في هذا الكلام تجربة ولاعطاء انسان ولا صنعة ـ ولو لفظية ـ ولا موسيقى ولا اي شيء يدل على الجهد فان لدينا قصيـدة اخرى تحمل ذت الاقانيم ومطلعها :

ما زارني يـوم
مذ مسني الهم .

وفيها من (حسن الاستدراك!) ما يجعل (لكني) نصف الشعر !

ادور لكني الى ملقاك جاهد
أراقب النجوم حيث انت
واتحف السماء بالف بيت
من شعري الطليق !

وهذا بحسن التعليل في قصيدة « خليل خوري » حين يقول :

تبهت الحاء وتشقى الباء
(كي) توضح ما ليس يعرف

واذا فالتركيب النثري ظاهرة عامة . والاذن الموسيقية والذوق المرهف الذي يجعل للحرف لينا وطيبا .. أشياء مفقودة . اما المطالبة بهـــا فأمور رجعية ؟!

ولكن لا يحق لنا ان نيأس .. ففي العدد ثلاث قصائد كان لا يجوز ان يوجد غيرها ، اذ اعتقد ان تسهيل النشر يضر بالشاعر والمجـلة والقراء .. وما دمنا اخذنا القصائد الست كظاهرة لدراسة « خداع الصورة » في الشعر الحديث ، وكوسيلة الى تبين « الرؤيا المحدودة التي بلا عمق » فيجدر بنا ان نبدأ بقصيدة الشاعر مجاهد عبد المنعم مجاهد كنموذج للشعر الذي يمتح من معين الحياة ويصلنا بمأســـاة الانسان في سبيل تحصيل لقمته وصراع الفرد ضد تقلبات رياح الرزق في مجتمع لم يحصل بعد على ضمان قانوني ضد الجوع والبؤس .

يلاحظ في المقطوعات السبع توخي اللقطة الانسانية التي تعبر عـن ماساة جماعة ضمن خصوصية بطل متميز . وفي كل مقطوعة نجد الصورة نابعة من صلب الموضوع وقد جاءت لتوضحه وتزيد عليه ، لا لتزينه . واذا كان تكثيف التجربة وعرض خلاصتها من اهم ميزات الشعر القديم، فان اعطاء التجربة كل تفصيلاتها التي تردها الى الحياة ، من الخصائص الاساسية في الشعر العربي الحديث . والشاعر هنا يقدم تفصيلات التجربة من خلال صور متكاملة يكاد يصح لنا ان نفسرها كرموز عميقـة او ان نتخذ منها امثلة نقيس عليها في مثل حالتها . ان البراعة تكمـن فـي حيـاد الشـاعر ، اثنـا سرد التجربـة . وبالطبـع لم يكـن محايدا حين انتقى لنفسه موقفا تبناه واخلص في عرضـه ... انه فنان ملتزم وشديد الاخلاص لقضيته . فهو يوحي الينا بأفكاره من خلال تصويره لحوادث بؤس الطبقة العاملة وايحاء تلك المقطوعات ، وخلوها من اية خطابة مجلجلة ، يحقق في الفن تلك الرسالة السامية في التوجيه غير المباشر للمطالبة بحال احسن . والحقيقة انه ليس هنـاك الفاظ شعرية ولا افكار شعرية بل هناك « تفكير شعري » اي طريقـة خاصة في ترتيب الافكار والحوادث ثم عرضها بشكل يثير خيال القاريء ويؤثر في عاطفته كما في مقطوعة « العشاء الاخير » حيث يعرض قصة متنحر ظل ستين يوما بلا عمل وذات مساء قدم عشاء لاولاده وشنـق نفسه . وتردد زوجه :

قد قبل الصغار مرتين
ومات دونما عشاء
وعينه على حسن

و«حسن» ابنه الكبير ... الذي ملا مكان ابيه وجلب الخبز وقسمه بين اخوته فراته امه :

رأته يقطع الرغيف بينهم
يوزع الطعام ....
بكت عيونها وادركت بان سبعها
ما مات امس
بل لا يزال ...
وحولها العيـال
كان العيال واجمين
كان الاخ الكبير بينهم وكان حزنها سكن
كانت تقطع الطعام
وعينها على حسن !

هنا تندمج كل عناصر العمل الشعري في سبيل تقديم الحادث ... ونكاد لاول مرة في الشعر العربي لا نبحث كثيرا عن اللفظة اللغويـة والحرف المفتاح بل اننا نسير مع الحادث نتابع تفاصيـله بهذا السرد البطيء الذي يربط كل صورة بما قبلها فيغمرنا بجو من الهدوء العائلي الحزين ويشعرنا بطمأنينة الام وهي تنظر الى الاسرة فتـراها تسـتعيد تماسكها بعد انهيار دعامتها . ان هذا النوع من الشعر يعتمد المقدرة على خلق جو الحادثة خلقا يؤثر في نفس القاريء ويهيـؤها للتعاطف مع الحادثة وتلقي الايحاء من الفن الذي دأب صاحبه عليه حتى مسح اثـر الدأب فظهر بسيطا عاديا لا تكلف فيه . ولعل المقطوعة الاولى « النـاس والاعلانات » من انجح المقطوعات في خلق الجو الذي يصور ثقل المدينة على صدر المرهق واللهاث المسعور في مطاليب الحيـاة اليوميـة ... وبعد العودة من نهار المبيع كم يشعر المرء بغربته عن اضواء المدينـة المتلألئة والنوافذ المشرعة في البنايات الشاهقة والسيارات الفارهـة واصوات الغناء من المذياعات :

... وكلم الفتى الجدران
وساءل الجدران : من انا ؟
فلم يجد امامه سوى الاعلان ...
وسلة الليمون في اليد الصغيره ..
وضجة المدينة الكبيره ..
ولمعة النيون ...

انه احساس عانيته ـ يا اخي منعم ـ وانا طفل ابيع الاوراد .. وكم ساءلت نفسي : لمن كل هذا « اللمعان » ؟ وكم شعرت ـ ورجلاي تقودانني

مكتبات انطوان

فرع شارع الامير بشير

ص.ب ـ ٦٥٦ ـ تلفون ٢٧٦٨٢

جميع الكتب المدرسية

باسـعار لا تـزاحم

الى الكوخ ـ بان الشوارع الفسيحة اكبر مني الى حد يضيعني. واليوم وانا اقرأ هذه المشكلات شعرا اسوان يخلو من خطابية المظاهرات اتفاعل بمستقبل امتنا وقرب تخلصها من كابوس البؤس .. ولي عندك رجاء صغير هو ان هذا النوع من الشعر صعب وليس فيه حد وسط فهل آمل منك ان تحارب اي انحدار سوف يصدر عن اتباع هذه المدرسة؟ ويكاد الدوار يغشي عيني كلما تصورت (شعراء الموضة) الذين سوف يقلدون هذا الاتجاه واذا بنا امام كل اخبار الجرائد وقد نظمت شعرا ! انا اعلم ان اختيار مثل هذه اللقطات يحتاج الى ثقافة واسعة وحس شديد الرهافة ، بل انني لالمح تشابها في روح الانتقاء وطريقة العطاء بينك وبين او. هنري . حتى ان مقطوعة « بائعة العطور » تشابه قصة « غرام النصف قرش » عند ذلك الكاتب . ـ ولا اتهمك ، فقصته تلك تختلف تماما عن قصة مقطوعتك . لذلك ارجو منك ان تكون قيما على مذهبك اذ انني الامح من خلال شخصيتك الاف المقلدين . كما ارجو منك انت بالذات ان تكون اكثر عناية بفنية التعبير وعدم الاتكاء على الركاكة بحجة البساطة كما في المقطوعة السادسة .

واذا كانت القصيدة السابقة مثالي على طريقة احياء التجربة وتقديمها في الشعر الحديث فان (كلمات انسان معاصر) للشاعر ظافر الحسن تعطينا مثالا ثانيا على عمق الرؤيا الشعرية وتمكن الشاعر من فنه حتى يغمرنا بثورته ودفقات تمرده العاتي على استسلام انسان الوطن للقدر وغرقه في الفراغ والضجر المرهق .. والمدن الجائية في رهبة البارود تستغفر الاله « تستغفر الفولاذ بالصلاه » :

تهتف في أناه :
« يا ايها المغامرون في مدى البحار
« في الجزر المشدوهة التخوم
« يا ايها المراودون شرفة النجوم
« والقمر الغرير
« لما تزل في سجننا المذهب الكبير
« قوافل خيامها الجليد والسعير
« واعين ذاهلة مسيخة الشعور
« تبحث في عنابر هتيكة الستور
« يدرها الاله بالشرور
« بالشبق المحرق .. بالحمام
« لما تزال في سجننا الملوث المخيف
« تبحث عن رغيف
« ومرقد يضمها المساء في سلام .

وبذلك تظل عينه ـ بلمحة خاطفة ـ عل كل مشاكلنا في هذا العصر : بقية الارض تراود النجوم والقمر ونحن ما نزال نناقش الخير والشر ، والفكرة الالهية تشغلنا بكبت شهواتنا فنحيا في سجن من الشبق والفقر حتى نستسلم ولا نعود نريد غير الراحة .. أما المواطن الثائر . أما المفكر الذي عرف مكان وطنه من خط سير العالم فانه لا يملك الا ان ينظر الى هذه الجموع وقد شغلها هم الحياة اليومية ـ اللقمة والراحة ـ عن كل طموح فيتمزق الما ويشعر بغربته عن قومه وبعجزه عن تركهم واللحاق بعالم حديث متقدم . ان الفرد يشعر بارتباط عضوي مع امته ولو خالفها وابتعد عن عقليتها ، بل انه ليضيق بها ويتمنى ان يجرها معه والا احس بالشلل كما في الابيات التي تنتهي بها القصيدة :

مواطني الموتى ـ بلا ـ قبور
منابع مجدبة ، ناضبة الدموع
أوغل في هجيرها كأنني غريب
وحولي الجموع والجموع
مجهدة تدور
ولم أزل ادور
أهيم بين الجثث الهريئة الصدور
أحمل في اوردتي ضراعة المغيب
كأنني ثورة لا تثور
كأنني قد مت من دهور
ولن أزال ـ الدهر ـ في دوامة الصراع
ابحث عن ذراع
عن بعضي المضاع
في كوم الموتى ـ بلا ـ قبور

وبذلك يعبر عن انفصال المثقف عن امته ، ذلك الانفصال العقلي الذي يورثه التمزق والضياع في بيئة هو منها وليس منها . يكرهها ولا يستطيع ان يغادرها . انه خير تعبير عن ذلك « القرف الذهني » الذي يعانيه البعض ، ونحن وان كنا نطلب منه ان يكون اكثر حنوا على هذه الجماهير التي اعاقتها اللقمة ـ لاسباب عديدة ـ عن الطموح الى خلق الذرة ... ونحن وان كنا نطلب منه ان ينظر بعين الرضى الى ما تحرزه الجماهير العربية من انتصارات في سبيل حريتها .. ونحن وان كنا لا نشاركه هذا التعالي ، فان كل ذلك لا يمنعنا من الاعجاب بجودة التعبير الفني الذي يذيب الفكرة في غمار رؤيته الجامحة ، وبذلك تخرج القصيدة قطعة من الحياة ... وملاحظتنا الاخيرة على القصيدة هي ان ذروة الانفعال تأتي ، وبشكل غير واضح تماما ، في نهاية القصيدة مما يجعلها مسطحة وليست هرمية . وهذا يقلل من قدرة القصيدة على التأثير. كما ان اصالته تبتعد به عن الدوران في فلك « خبز وحشيش وقمر » والفرق بين القصيدتين يصدر في ان موقف الشاعر ظافر الحسن هو موقف فكري يستشرف حياة جديدة في حين ان الشاعر نزار قباني يكشف تفاهات الحياة القديمة . وبذلك تشكل القصيدة الجديدة خطوة تطور بالنسبة الى قصيدة النار تلك .

الاستاذ عبد الباسط الصوفي للشاعر القصاص المفكر .. استقطبته مجلة الاداب اخيرا كشأنها في جمع النخبة من شباب الجيل . وقد طلع علينا عبد الباسط بعمقه وصفائه وخياله ، متجليا بتلك القصيدة الرائعة « سبوتنيك » فقدم لنا شعرا تتوازن فيه عناصر الابداع بتناسق الفكرة والاداء والنغم فكأننا من القصيدة حيال بناء شديد الرسوخ شاهق السموق. وهنا اذا اردنا ان نسأل الشاعر : ماذا يريد ان يقول ؟ اجابتنا القصيدة بطوفان من الافكار والشفافية . « سبوتنيك » حديث العالم ومعجزة العصر ! كيف تكون؟ وكم كلف الانسانية ؟ وما معناه للانسان.. تلك اسئلة تتوارد في أذهان المخلصين للانسانية ، المتعمقين في تطورات حياتها . وكما لعن الكثيرون بناة الاهرام حين علموا ان ثمنها ارواح نصف مليون انسان .. يلعن شاعرنا الكبير « سبوتنيك » هرم النصف الثاني من القرن العشرين . انه يتساءل ويجيب . انه يعرف المذابح ومشانق الحرية التي انتصبت كي يرتفع على حطامها « سبوتنيك » يجوز الحدود . ان التجربة الغربية حولت تمرد الانسان الى الطبيعة ... ليتغلب عليها ويكتشف قوانينها ويخضعها لمشيئته . وفي سبيل ذلك هانت القيم وضاعت الحريات وامتهن الانسان فتحول من كائن مفرد

ألى رقم في سجل الانتاج... انه الانسان « أثمن رأسمال » حسب قول ستالين ... اما الانسان « أثمن مثل ـ فذلك شيء « رجعي » ليس واردا في الحساب . وفي صمت الرؤوس المطرقة على الالات والظهور المقدسة والعمل الجبري ، وفي كل الظلم الاخرس الذي يمثله الجزء الثاني من الحضارة الصناعية يرتفع سبوتنيك « في سحيق الفضاء» والابعاد الزرق :

ويلتفت العالم المثقل
والف وجوم ، به ، يسأل
وينقض ليل الظنون عليه
ويحتقن الرعب ، في مقلتيه
وسمره وجل مذهل

ويتسمر العالم من الرعب ... فما كان لكشف مثل هذا ، ثمنه حياة ملايين البشر ، ان يكون بشير خير في يد أثيمة .. تبدأ التصريحات تعلن « ولادة عصر جديد » وتمتليء بالزهو ملايين الرؤوس الفارغة من اي وعي.. ويدب الكبر في النفوس : ويسكر بالفخر من اصمهم ضجيج المصانع :

« عمالقة نحن، نرفع الهة من حديد
اتيناك ، يا نهر الزمان تدفق
وفجر ، من الغيب ، ما كان مغلق ...

وفيما الصدور تزخر بالاماني تبلغ القصيدة ذروتها مدوية مع صخب الملايين وشعارات السلام ورنين كؤوس الفودكا .. ثم يهدأ النغم في سكرة الظفر ويرن لحن مفرد هادىء النغم كما في اية سوناتا جميلة ..

وماتت اغاني المروج ، القديمه
ويمتط ، في الارض ، ظل الجريمه
« زفاغو » صدى يائس لا ينام
تطارده لعنات الظلام

وتنطلق نبوءة الشعر :

هنا .. من سجون « زفاغو » الهزيمه

فحرية الانسان وكرامته ... اولا ، وكل بناء لا يحترم حرية الفكر يحمل عناصر فساده في ثنياته :

هنا ، يتصلب قيد ، على الجرح ، بين الصديد
حضارة ضوضاء ، حالمة بالفضاء البعيد
تفح ، وتلفظ ، انسانها قطعة من جليد
وفي « الكرملين » يقولون : عصر جديد .. جديد

وبذلك تأتي النهاية تتمة طبيعية لكل العناصر الفنية التي تساهم في هذا البناء الفني الممتاز ، واول هذه العناصر السخر المر الذي يلف الجو الفكري للقصيدة بأجمعها ، فهو منذ بداية القصيدة يبدأ بمخاطبته باحتقار : « من الارض رحت رسولا غبيا » .. ويبدأ بتصويره تصويرا هزليا كاريكاتيريا ، فهذا الصاروخ الفولاذي (الرسول الغبي) يومض كاللمح ، عيونه موغلة في سحيق الفضاء ، ثم يجمع بين السخر والاحتقار حين يبين المعنى الذي خلع على السبوتنيك : فسروا وجوده بانه تمرد سوف يكشف لغز الحياة . ثم ينتقل الشاعر من السماء الى الارض فيصور المواكب التي سارت تفخر به : جرعة فودكا ، صخب عيد ، عمالقة نحن ، ملايين ساروا ، تراكم رقم . وينتهي ذلك السخر بمأساة ظهور زيفاغو تطارده لعنات الظلام فيفصح الشاعر اخيرا عن كرهه لحضارة تحلم بالفضاء وتلفظ انسانها قطعة من جليد .

وتأتي تلك العناصر الفنية الصورة الاثيرية للفضاء : « في هجعة الاوج تغفو ثلوج الفناء » وبذلك نحس ثقل وجود الصاروخ . وهو يثير هذا الشعور بالتعاكس حين يصور الاحتفال بضخبه وملايينه ثم أنات زيفاغو السجين.

والتوزيع العاطفي للقصيدة توزيع هرمي حيث يعلو نغم الفخر : عمالقة نحن ... وينتهي بالانات

والقصيدة بأجمعها شعر على مستوى القضية التي يعالجها . وهذا التوازن بين عناصر القصيدة يمنحها طابع الكلاسيكية الجديدة .

ولعل مما يزيد في قيمتها ان اكثر الشعر المعاصر قد اصبح خاليا من العنصر الفكري فجاءت هذه القصيدة بداية خير لشعر يشترك العقل في تذوقه . ومن الممكن ان نقول ان هذه القصيدة ليست فقط خير ما في العدد من شعر بل من خير قصائد موسم الصيف عامة ... واننا لنأمل ان نلتقي دائما مع هذا الشاعر المفكر .

دمشق — محيي الدين صبحي

القصص

بقلم عايدة مطرجي ادريس

..*..

احدى قصص العدد الماضي من الاداب قصة مترجمة للكاتب السلفادوري سالارويه . وهي قصة تعتبر نموذجا رائعا للقصة القصيرة الموجزة ، المركزة ، المعبرة ، البسيطة في ادائها ، العميقة بمحتواها الانساني ، ذات التصوير النفسي الدقيق والاسلوب الموحي الذي يتماوج مع ذبذبات العاطفة والصورة والفكرة .

فالقصة قصيرة لا تتجاوز الصفحة والنصف من صفحات هذه المجلة وهي موجزة ، يقطع الكاتب فيها جمله قطعا همه الوحيد منها ان يصل الى الغاية التي من اجلها كتب قصته : « بذل غويو وابنه جهدهما فانطلقا يصطحبان الفونغراف الى الهندوراس . وكان العجوز يعلق الصندوق على ظهره . وكان الصبي يحمل كيس الاسطوانات والبوق الملتوي الذي كان يشبه جرسا كبيرا .. »

وفي الصورة الصغيرة الموحية التالية، عبر الكاتب عن موت غويو وابنه تعبيرا كان يحتاج الى عشرات السطور . لقد اكتفى بقوله « وشاهدتهما الاضواء الاولى هناك ، وهما نصف مجلدين متوجعين ، مخدرين من البرد ، فاغري الفم البشع واللاعب ، وقد تقلصا نصف تقلص على الغطاء الممزق الوسخ المخطط كحمار وحشي . » تاركا لخيال القاريء ان يحمل وان يمتد ضمن الاطار الدقيق الذي رسم له ، فيعيد بناء الصورة بمختلف ابعادها الشعورية ، ويحس بلذة كبرى ، هي لذة التفاعل والمشاركة في الاكتشاف ولايجازها جاءت القصة مركزة تركيزا شديدا . فبناؤها متين وهي تسعى بسرعة نحو الفكرة الرئيسية التي يريد المؤلف ان يؤديها . وهي الى جانب ذلك بسيطة في اسلوبها ولكنها عميقة في معناها . فالقاص يرتكز على فكرة فلسفية تقول بان الانسان طيب بطبعه ، وهو لا يريد الشر وانما الظروف هي التي تجعله شريرا . وهو يدلل على ذلك بموقف اللصوص الذين يسرقون الخيرات والحيوات ولكنهم ، ما ان يخلوا الى انفسهم ، حتى تعود تلك النزعة الانسانية الخيرة فيهم فتطفو ، فاذا هم « يبكون » وفي هذه العبارة من القوة والايحاء ما يجعل القاريء يهتز من التأثر والاقتناع .

وفي القصة مواقف انسانية رائعة اخرى ، كالمشهد الذي تظهر فيه العاطفة الابوية عند غويو الذي لم يداعب في حياته طفله ، ضمه الآن الى صدره واحاطه بذراعيه اذ رآه في هذا المجال الفسيح الرهيب من شاملسون خائفا ، منهوك القوى ، يريد ان ينم ان الوحدة هي المحك الرئيسي للعواطف الانسانية ، للعواطف الطيبة التي تكمن في اشدنا وحشية .

اما الاسلوب فهو ، على بساطته ، رائع . انه يلائم جو القصة ملاءمة شديدة ، بل لعله هو الذي يخلقه . فهو يوحي بالرهبة حين يقول : « فقد دلفا الى الجبل عندما هبط المساء. ونظفا مكانا صغيرا تحت سفح شجرة ، وامضيا هنالك الليل ، وهما يصغيان الى صرير الصراصير والى طنين البرغش،يصغيان من دون ان يتجرآا على التنفس وهما يرتجفان من البرد والخوف . » وهو يوحي بالبساطة والبراءة والنعومة اذ ينطلق من فم فتى صغير فيأتي الحوار معبرا عنها بـ « اه ، ذلك ان الحزام يسبب لي الما في ظهري .. « يا بابا ، هل يوجد هنا حيات ؟ »... « ان كنت ستدخن فدخن تحت قبعتك يابابا ، فان شاهدوا البصيص فانهم سيجدوننا » وهو في مواقف اخرى شعري ساحر ينساب سلسا عذبا يدغدغ العاطفة الانسانية ويدعو الى التأمل : « وارتفعت الاغنية في النسيم الفاتر كأنها شيء مسحور . وجمدت احراج الجوز في البعيد عروقها واخذت نصغي . وكانت نجمة المساء تبدو وكأنها تصغر وتكبر كما لو كانت معلقة بخيط ثم غمست وهم يرفعونها او ينزلونها في ماء الليل الهادىء » . انه جو يعيد الطمأنينة الى النفس، فاذا هي تصفو من ذلك الضباب الكثيف الذي كان يكتنفها ، واذا الانسان عار ينصت امام نفسه ، على صوت « اغنية حزينة على الغيتار .. اغنية ذات نبرات شاكية وغصات حب وعظمة. وكانت انغام الغيتار المنخفضة تئن وهي تنهد من الرغبة . وكانت المغنية الصغيرة تشكو ظلامة وهي يائسة ! في هذاالجو العابق بالموسيقى تبادل اللصوص النظرات ثم اطلقوا زفرة .

لقد اثر فيهم هذا التعبير الغني الوحيد الذي يمكن ان يتجاوب معه اناس ما يزالون في حياتهم البدائية ، هذا التعبير الفنائي الذي يحاكي القلب وينفذ الى المشاعر فيتعانق معها الانسان الخير ، لمجرد كونه انسانا ، من اجل ذلك اعترف اللصوص بانهم قذرون ، ولهذا ايضا اخذوا يبكون .

الابواب المغلقة

هذه القصه للكاتب المصري عطاء النقاش يمكن ان نرى فيها صورة للادب العربي الحديث المطعم بادب الغرب والمتأثر بثقافته تأثرا لا يفقده طابعه الخاص الذي ينبع من مجتمعنا وارضنا ونفسيتنا .

فموضوعها ليس بالجديد . وهي تلح على فكرة تأثير العيون على المرء ، تلك العيون التي تعتبر « السد المنيع في وجه كل تفاهم بشري » فهي « تأكل وجوده وتعريه من كل شيء» انها عبارات سارتر نفسها واحدى الركائز الرئيسية التي تنتظم فلسفته الوجودية وموضوع روايته «الجلسة السرية » . وروح سارتر موجودة في هذه الدعوة الى الانطلاق من القيود التي تكبلنا ، وتعيق سيرنا على الخط الذي نرتضيه لانفسنا . نفس الروح الكئيبة ، والقلق والغثيان ، نفس التشاؤم من وجود اي سبيل للتفاهم فكأنها عبارة سارتر تعود الينا لتذكرنا بان « الجحيم هو الاخرون » .

« انا قد سئمت حياتي على نحو مر ومضن وقاتل .. ما من مرة حاولت فيها ان اغزو اكتئابي وخوفي الا وعدت وفي نفسي خيبة وبقلبي انقباض ... » ـ « ولكن شيئا ما في عيونهم كان يمنعني ، كان ثمة سد قاس ومخيف ورهيب يمنعني ويحبس الحروف على شفتي ويميتها».

هذا التأثير الواضح بسارتر في القسم الاول من القصة يضعف قليلا ليحل محله تأثرات اخرى اذ يبدو في القسم الثاني من القصة التفاهم ممكننا بين عيون اربعة ، تعتزم هي ايضا ان تتحرر وان تعيش حياتها كما يحلو لها ان تعيش ، عينا البطل ، وعينا ليلى . هذا التفاهم يشكل قوة هائلة تجعل كلا منهما قابلا لان يثور ، وهكذا يصبح هذا الاخر ، الذي كان بالامس بغيضا خاملا ، قوة معجبة . وهنا يقترب الكاتب من نظرة « مارسيل » الى الاخر على انه مصدر سعادة وقوة وانطلاق . ولكن الكاتب لا يسعى اشواطا مع « مارسيل » . اذ تظل هناك عيون اخرى تراقبه وتحاصره فيمقتها . ويظل المؤلف ملتصقا بنظرة سارتر الى الاخرين . اما هذا الاخر الذي احبه واندمج فيه ، فما هو الا جزء منه ، من كيانه هذا المتحفز ، المستقوي لمواجهة الاخرين ، الداعي الى التحدي .

ويعود الكاتب ليوفق بين نظرتي سارتر ومارسيل بصورة ملحوظة جدا في القسم الثالث من القصة حيث يشتد العزم لمواجهة الاخرين باصرار وتحد مهما كان الثمن غاليا . فالبطل سيكلم المدير بلهجة جافة وصريحة ، وسوف يضم حبيبته فوزية امام اهلها ، وكذلك ستفعل ليلى، ستواجه عيون والدها ، ستتحدى ارادته ، سترفض ان يفرض عليها الزواج من شخص لا تريده هي .

ولكن هذا التحدي السارتري رائده لا البغض بل الحب ، الحب الذي يشع في فلسفة « مارسيل » . ان ليلى تحب والدها ولا تمقته ولكنها تريد ان يفهمها . وكذلك البطل لم يعد يمقت الناس ، انه سيواجه عيونهم بعطف وحب لان نظرتهم اليه سوف تتغير ، سيفهمه من اساء فهمه ، وهكذا تفتح الابواب المغلقة ، فيتحرر المؤلف من تأثير سارتر ليلتقي مع مارسيل في جو عابق بالامل والحب ..

رأينا الى اي حد بدا الكاتب متأثرا في موضوعه ببطلي الفلسفة الوجودية ولكن هل طغى هذا التأثير الى حد بدا فيه المؤلف نسخة مشوهة عنهما ؟

لا . ان الكاتب قد هضم ما قرأه عن سارتر ومارسيل . ولذا اصبح بامكانه ان يتصرف بتلك المعلومات ويتلاعب بها . ويخيل الي ان الكاتب لم يكن ليتأثر هذا التأثر بسارتر لو لم يكن لديه استعداد نفسي مبدئي للتقبل . انه يستغل مفهوم سارتر ومارسيل ليحوله في مختبره الخاص ، من خلال تجربات خاصة الى نظرة متعددة الابعاد ، مختلفة المرامي.

ان عيون الاخرين البغيضة اصبحت ترمز هنا الى اقاننا الاجتماعية العربية . انها العيون الجاهلة المتمثلة في الاب الذي يبخل بالمال لتعليم ابنه ، وفي الفتاة التي حازت على درجة رفيعة من العلم وبقيت بلا تثقف او بالاحرى بقيت هذه الثقافة رموزا لم تستغلها في تطوير مجرى حياتها . والعيون البغيضة ترمز ايضا الى الاسرة التي تخنق انطلاقات الشباب العاطفية نحو من يحبون ، ويفرضون الزواج بالقوة على الفتاة كما كان يفرض ذلك عليها ازمان كانت جاهلة . والعيون التي

تنشر الاسى والسدود تتمثل ايضا في القرى الرجعية والكذب والنفاق الذي يعم بعض دوائر التوظيف في بلادنا ، وما تخلقه لدى شبابنا من عقد نفسية يغذيها الاذلال وطرق الابـواب . انها احدى المشاكـل الاجتماعية الكبرى يطرقها الكاتب هنا . ان مائـة من الشـباب يترددون كـل يوم على حاجب المدير يطلبون عملا . وهو لا يريد منهم سوى خمسة لا يجهر بعددهم بل يتركهم يضيعون وقتهم كل يوم ليعودوا بهذه الجمل : « المدير مشغول جدا .. فانتظر قليلا » « انتظر .. ان السيد المدير مشغول في اجتماع » او « انه لم يأت بعد » او « غدا » تأتون لتقابلوا المدير فقد انصرف اليوم مبكرا .»

اجل ان من طرق ابواب الوظيفة سعيا وراء الرزق يدرك ما في هذا التصوير من صدق ودقة وابداع في الوصف والتأثير برموز فنيـة ، رموز العيون البغيضة ، ويدرك ايضا ما في هذه القصة من محاولة خلقية لرفع هذا المجتمع الذي يدفع المثقف الى التفكير بحمل السلاح بيديه للتخويف بعد ان فشل سلاح العلم الذي يحمله في عقله » سأشـهر في وجهه سلاحا ذا حدين وعند ذلك يقودني حيث اجد نفسي امام المدير وجها لوجه وسأظل اعبث بالسلاح بيدي وهو ينظر الي في رعب وخاصة عندما يجد الاصرار يشع في عيني المغضبتين وعند ذلك سأصرخ فـي وجهه محتـدا :

ـ سيدي ، انت غشاش ومخادع ! »

ان شبابنا هذا الثائر لن يقنع بهذه الحياة الخاملة . انه سيبعـد تلك العيون الخبيثة التي تعريه من وجوده وتخنق امكاناته وتراقب اندفاعه نحو المستقبل .

ان النفسية العربية الحديثة متمثلة خير تمثيل في هذه القصة ، التي يفتح فيها الكاتب الابواب المغلقة لتتعانق العيون المثقفة ، العيـون المتعطشة الى غد افضل ، غد لا يحده افق ، غد تملأه المحبة والحريـة والشعور بان المستقبل هو ملكنا ، هو في تضامننا مع رفيق جهادنا ، فان فشل احدنا او انتصر الاخر ، عد النصر مشتركا . اليست هذه كلها هي اهدافنا ، وآمالنا نحن ابناء هذا الجيل العربي الجديد ؟

لذا فان البطل ، ان فشل هو في محاولته الثائرة ، فانه سوف يعـد النصر الذي ستتحققه ليلى برفضها الزواج بمن لا تحب نصرا مشتركا .

هكذا يبدو لنا ان هذه القصة هي نموذج موفق للقصة التي لوحتها ثقافة الغرب وبقيت محتفظة بطابعها الخاص . من منا يستطيع ان ينكـر ابطالها الحقيقيين ، نفسياتهم ، تصرفاتهم ، اندفاعاتهم ؟ لقـد عرفنـاهم من سماتهم رغم القناع ، وعريناهم ، فاذا هم مـنا . طقم قديـم رجعي عيونه حادة وابوابه مغلقة ، وطقم جديد ، عيونه تطفح بالامل والحب.

اما القصة من الناحية الفنية فهي مركزة تتبع في بنائها خط سير التدفقات النفسية والعاطفية . وهي منطقية في تتبع احداثها ، اقصد بذلك المنطق الذي تولده العاطفة ، وتؤدي الفكرة والغاية المقصودة .

انها تبدأ مكفهرة يائسة منهوكة القوى لتقوى شيئا فشيئا منتهيـة بالثورة والتفاؤل والحب « انا قد سئمت حياتي على نحو مر ومضن وقاتل» وتنتهي « ففي الغد ، وفي مكان ما من هذا العالم ، وبطريقة ما ، سيكون ثمة انسانة واحدة على الاقل قد بدأت تواجه عيون الاخرين وتكسـر سدودها وابوابها وتنتصر لنا »..

قوة البناء الفني هذا ، وتصرف الكاتب بمعلوماته بالطريقة التـي اشرت اليها دليل واضح على صدق التجربة الفنية لديه واختمارهـا في نفسه حتى باتت جزءا لا يتجزأ من كيانه الفني، فلا عجب ان يصبـح الاسلوب واسطة طيعة لنقل خلجات نفسه وتطورات عاطفته وان يأتـي سلسا معبرا بسيطا . ويمكننا ان نعتبر هذه القصة واحدة من قصصنا المعبرة الناجحة .

العيـــد

ذكرتني هذه القصة لثروت سرور ، بعد ان قرأتها ، بتلك الاخبار التي كانت تملأ خيالنا اذ كنا اطفالا ، تتردد لذيذة مشوقة نتتبعها بشغف عظيم ، حتى اذا وصلنا الى نهايتها صدمنا بحقيقة ما كنا نريدها ، وهـي ان البطل قد توصل الى هذه الدرجة من العظمة والمال ولكن ذلك لـم يكن الا في المنام !..

شبيه بذلك ما يتردد من نكتة في هذه القصة . ان الاخوين يتنازعان « فخذ البطة » وتقوم المشاحنات بينهما فتنتهز هذه الفرصة قطـة تأخذه بالمخالب وتنطلق به وهما يعدوان خلفها كالمجانين .

وجه الشبه هو هذه النهاية اللامنتظرة التي يحدثها هناك المنام وتحدثها هنا القطـة .

ولكن هذه ليست الا فكرة عابرة لا تخفي ما يكمـن وراءها من عمـق المأسـاة .

ان القصة تمثل ناحية اجتماعية خطيرة ما تزال تتغلغل في مجتمعنـا وتحد من امكانياته الخلاقة . هذه الناحية هي الفقر ، والجوع ، والحرمان من اللقمة اللذيذة التي من حق الاطفال ان ينعموا بها . وموضـوع القصة يدور حول هذا المحور . ان خليل ينطلق ليخبر الحي كله بان لديهم عزومه ، فتشرئب اعناق الصغار كأنهم يلتهمون بآذانهم ما يعدده من الوان الطعام هو واخوه « وهاج لعابهم ولمعت اعينهم برغبة عارمة كتلك التي تكون في عيون الكلاب الضالة عندما تنظر الى لحم ليس لها » . الحي كله جائع وبائس . وخليل واخوه جائعان ايضا . فكيف تكون حالهما اذا كان الطعام هذه المرة من الصنف الرائع ، من لحم الديك والبطة ؟

الجواب المنطقي هو ما جاء من وصف موفق لمواقفهما . محاصـرة والدتهما الى النهاية منتظرين معا امام الكانون وقد فرغ صبرهما حتـى يتم نضج الديك والبطة . وبالرغم من توسلات امه فقد ابى خليل ان يترك امه لحظة واحدة حتى ان يده قد احترقت بماء الارز . ومـن الطبيعي ايضا ان يهرول في الزقاق الضيق ليعود بسرعة بعلبة المعسل لوالده قبل ان يفرغ الضيوف من الطعام ويأخذ الفخذ اخوه . وهذا تصوير بارع للحرمان : « قدم خليل لابيه علبة المعسل وبصره مشـدود الى طبق العشاء الذي لا زال امام الضيوف لم يخرج بعد واسـتطاع ان يتبين في زحم الاطباق الصغيرة الطبق المنشود » و « فتحي يرمقه من الخارج وينتظره على نار » ثم يطبق على اخيه الخناق عندما يبدو له ان لا اثر للفخذ، ثم يتحسس جيب اخيه، فاذا الفخذ فيها . وللقاريء مجال تخيل تلك الدرجة البالغة من الحرمان التي تدفع الفتى الى ان يخبيء الزفر من اللحم في ثيابه ...

الى جانب تصوير ناحية اجتماعية ، تبدو هنا ناحية نفسية مميزة هي النفسية العربية المضيافة بالرغم من هذا الحرمان كله . انها تذكرنـا بكرم الطائي . ان الاب هنا ، يذبح الديك والبطة اللذين اعدهما للعيـد

كما ذبح حاتم فرسه لضيوفه ، وتظهر في القصة لقطة نفسية حلوة تتمثل في موقف الام من معارضتها لذبح البطة « تلك التي زغطتها ما يقرب من نصف كيلة ذرة حتى اصبحت معدة ولائقة بالعيد . » رفضت ان تذبحها لينعم بها اطفالها الجائعون الذين تفضلهم على كل انسان .

وفي القصة تصوير دقيق لنفسية الطفل ، الطفل المحروم : الخوف الذي يستولي عليه في الزقاق الضيق ـ والانانية التي تجعله يتصور ان اباه واخاه متفقان ليبعداه عن الطعام ، واستئثاره لنفسه بقطعة الفخذ ، وفرحه الشديد بذبح الديك والبطة ، وشعوره في هذه اللحظة بانه اصبح يحب اباه وامه اكثر من اية لحظة مضت ، وقفزه وجذله وهو يحاول ان يحاصر الديك ، وحبه لاخبار الجن والعفاريت ، وخبثه وشيطنته في تصرفاته مع اخيه ، وترقبه الحالم للعيد ، كل ذلك يدل على تصوير دقيق لنفسية الطفل ، يضاف اليها النفسية المحرومة التي اشرت اليها .

اما القصة من الناحية الفنية فهي تعتمد في بنائها على التسلسل المنطقي لنفسية الطفل المحروم عبر الاحداث التي ذكرها . ولعل هذه الطريقة من اصعب الطرق في كتابة القصة . انها ، كالقصص الاميركية اجمالا تعتمد على ذكر الاحداث فقط ، تاركة للقاريء مجال التخيل والتحليل في ما يكمن وراء هذه الاحداث من ايحاءات معبرة . وهي عكس الطريقة التحليلية ، التي حمل لواءها « بروست » في « بحثا عن الزمن الضائع » . لقد كانت تعتمد على التحليل النفسي الدقيق لشخصية الراوي وقد عادت فقويت مع الوجوديين الذين يعتمدون على الذاتية الشخصية في جميع تصرفاتهم ومسائلهم الحياتية والعقلية .

والفرق في طرق التعبير واضح . فبينما تعتمد القصة التحليلية على « الانا » او ذكر الاخر من خلال « الانا » تعتمد الطريقة الثانية على ذكر الاحداث فقط ، ويصبح البطل « هو » فتغيب شخصيته لنكشفها نحن . والصعوبة ، بل الخطورة تكمن هنا . وهي خطورة متبادلة بين الكاتب والقاريء فقد يحمل الكاتب البطل احداثا قد لا تتحملها نفسيته او سنه فيفشل ـ والقاريء قد يسيء فهم الاحداث ويتطلب من البطل احداثا اكثر قوة او ضعفا من تلك التي ذكرها المؤلف . واذن فهي طريقة تتطلب وعيا وثقافة مشتركة متبادلة بين القاريء والكاتب . فهل نجح كاتب هذه القصة في هذه الطريقة ؟

مما لا شك فيه ان الكاتب قد راعى نفسية الطفل لا فرق ان كان يعي ذلك او لم يكن يعيه . فنفسية خليل هي نفسية طفل كما بينا وتصرفاته هي ايضا تصرفات طفل . وهي تنطبق على البيئة والمحيط الذي صوره فيه . ولقد اراد الكاتب ان يجعل احداثه اشد واقعية وطفولة وبدائية فاورد الحوار كله عاميا على طريقة الاولاد الذين نشأوا في بيئة محرومة وبالرغم من ان استعمال الحوار العامي كله هنا قد يحدث بعض الاعتراض ، فانه يبدو ضروريا من الناحية الفنية .

على ان هناك خطرا يرافق هذه الطريقة .

فقد يتدخل الكاتب احيانا بذكر اشارة صغيرة فيفسد كل شيء . وهذا ما حدث في هذه القصة . فقد بينا اية نفسية هي نفسية خليل، واي حوار هو حواره ، كله عامي بلدي ومع ذلك فقد اورد الكاتب على لسانه هذه العبارة : « وانه لينكر الان كيف كان اليوم حتى الضحى يمضي في حياته كسائر الايام ميتا وباردا كالعادة ويذكر ايضا كيف صحا فجاة وتثاءب ثم انتصب كالمارد يفيض بالحياة . »

وقد كشفت القصة عن ان خليل فتى صغير ما يزال يلعب الكره ، وهو بدائي التفكير والشعور ـ فهل يعقل ان يحس احساسا معبرا بهذه الطريقة الفنية الجميلة « اليوم يمضي في حياته ميتا وباردا ، يفيض بالحياة » حتى يظل هذا الشعور عالقا في ذاكرته ؟

الحقيقة ان الكاتب نسي لحظة بطله وانزلق قلمه بهذه الجملة الفنية التي كشفت ، بالرغم من قصرها ، على تدخله الشخصي . وهذه غلطة كشفت عن عدم تمرس الكاتب ووعيه الدقيق لمعالجة قصته بهذه الطريقة المستحدثة التي فشل فيها كثيرون من كتابنا .

النور بالثمن

لست ادري لماذا لم يتكون لدي اي احساس خاص بهذه القصة بالرغم من انني قرأتها اكثر من مرة. واني اميل الى الاعتقاد بانها لا تملك هذا الخيط الدقيق اللاملحوظ الذي يربط بين الاثر الفني والقاريء ، هذه العدوى التي تنقلك ، بالرغم منك الى الجو الذي اراده الكاتب ، فيتصرف بك ، على هواه ، طالما انت في شركه .

في القصة ناحيةهامةمن نواحي الخلل البادي في مجتمعنا . ولكن هذه الفكرة اجهضت ، فلم تأت بجنين سوي. وليس يكفي الكاتبان يكون منتقدا اجتماعيا حتى يصبح فنانا . المهم هو ان يجذبك . ذاك هو شرط الفن الاساسي . وهذا ما لم تحققه هذه القصة التي يظهر فيها التصنع والبرودة .

عايدة مطرجي ادريس

نقدات عابر

في خلال هذا الشهر ايلول (سبتمبر) ـ يظهر كتاب «نقدات عابر» لمارون عبود ، وهو يتناول جمهرة من رجال الصناعيين المعاصرين . وسيظل الحبل على الجرار فتلي هذا الكتاب العامر كتبه الاخرى ، وهي فوق الدزينة عدا . وقد انكب شيخ الادباء منذ اليوم رغم نصائح اطبائه، على اعداد وانجاز كتبه واحدا اثر واحد .

وهو عدا ذلك يكتب مذكراته التي تصور من عرفهم من اكابر الرجال واصاغرهم بلا تملق ولا محاباة .

منشورات دار الثقافة ـ بيروت